

الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم - ظاهرة التعريف والتكثير

The Rhetorical Miracle in the Holy Qur'an - The Phenomenon of Definite and Indefinite

الدكتورة كركوري رقية¹¹ جامعة حسبية بن بوعليل الشلف (الجزائر)، moualimakarkouri@hotmail.com

الملخص:

تعد قضية الإعجاز في القرآن الكريم من أولى القضايا التي شغلت الباحثين قديما وحديثا، فقد اتجه العلماء إلى دراسته، وبذلوا جهوداً هائلة في تحقيقه، والكشف عن أدلته، وتتبع أوجهه، إذ هي الأساس الذي يقوم عليه التشريع الإسلامي، فأفردوا له العديد من المؤلفات؛ إذ كتبوا في الإعجاز العلمي، واللغوي، والبياني، وغير ذلك. الأمر الذي دفع بي للبحث في هذا المجال، في موضوع موسوم بـ "الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم - التعريف والتكثير أنموذجا"، إذ تتناول هذه الدراسة الإعجاز البلاغي في ظاهري التعريف والتكثير في القرآن الكريم، خاصة في الجانب التركيبي والجمالي، وقد جاءت هذه الدراسة في شكل تطبيقي، تضمنت تساؤلا محوريا يدور حول أسرار استخدام الاسم مرة معرفة وفي سياق آخر يرد نفس الاسم نكرة؛ وذلك للوقوف على مظاهر الإعجاز الرباني في التركيب القرآني؛ ذلك أن كل تركيبة قرآنية حرفا، أو اسما، أو فعلا، أو جملة، وضعت موضعا فنيا مقصودا، لذلك اشترط العلماء أن لا يفسر القرآن إلا عالم لغة؛ لأن الإنسان بطبعه قاصر عن الإحاطة بمعاني مفردات القرآن الكريم؛ لما فيه من روعة البيان، وجمال التركيب، ودقة الوضع، فعكف اللغويون على مدارس اللغة العربية وضعوا القواعد الضابطة لها لفهم وتفسير القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فما دلالة المعرفة والنكرة في القرآن الكريم؟

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، المعرفة، النكرة، الدلالة، البلاغة.

Abstract:

The issue of miracles in the Holy Qur'an is one of the first issues that preoccupied researchers, both ancient and modern. Scholars tended to study it, and made tremendous efforts to achieve it, reveal its evidence, and trace its aspects, as it is the basis on which Islamic legislation is based, so they devoted many books to it. They wrote about scientific, linguistic, and graphic miracles, and so on. Which prompted me to research in this field, in a topic named "The Rhetorical Miracle in the Holy Qur'an - Definition and Deny as a Model", as this study deals with the rhetorical miracle in the phenomena of definition and negation in the Holy Qur'an, especially in the structural and aesthetic aspect, This study came in an applied form, and included a pivotal question that revolves around the secrets of using a noun once defined. In another context, the same noun is mentioned; In order to find out the manifestations of the divine miracle in the Qur'anic structure; This is because every Qur'anic composition, a letter, a noun, a verb, or a sentence, has been placed in an intended technical position. Therefore, scholars stipulated that only a linguist interpret the Qur'an; Because man, by nature, falls short of understanding the meanings of the vocabulary of the Noble Qur'an. Because of the splendor of the statement, the beauty of the composition, and the accuracy of the situation, so the linguists devoted themselves to studying the Arabic language and set the rules that control it for understanding and interpreting the Noble Qur'an and the Noble Hadiths of the Prophet, so what is the significance of knowledge and indefiniteness in the Noble Qur'an?

Keywords: miracle, knowledge, indefiniteness, significance, rhetoric.

تمهيد:

تناول اللغويون ظاهرة الإعجاز بإسهاب في تراثنا العربي، مسلطين الضوء على قضية المعنى والدلالة، إذ تظهر قضية المعنى عندهم في اهتمامهم بالتعبير القرآني انطلاقاً من المعاني الأولى الظاهرة للقارئ (المطروحة للجميع)، بغية الوصول إلى المعاني الثانية المتضمنة في بنية النص القرآني، لذلك وضع المفسرون شروطاً في المفسر، تتمثل في إتقانه مجموعة من العلوم اللغوية، إذ لا بد أن يكون محيطاً باللغة وأسرارها، وفي ذلك يقول الحافظ جلال الدين السيوطي: «لا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب»¹؛ وذلك ليتمكن المفسر من معرفة دلالة المفردة في أصل الوضع، وما يتصل بها مثل التحليل الصوتي، وما يتصل بها مثل خواص الحروف وصفاتها من همس وجهر، وصولاً إلى التحليل الصرفي، وكذا ضرورة إتقان علم التراكيب، وعلم المعاني لمعرفة خواص

استعمالات التراكيب في إفادتها للمعاني. والبيان لمعرفة الوضوح والخفاء في الدلالة على المعنى²، ومستويات التأثير المقترنة بذلك، والمتخذة قرينة في تحديد المعنى، والبديع كذلك لمعرفة وجوه تحسين الكلام إضافة إلى علمه بالقراءات، ليعرف به كيفية النطق بالقرآن، وبما يترجح بعض الوجوه المحتملة. وهذا ما يتصل بالتحليل الصوتي للنص. وبهذه الخاصية الصوتية يتميز النص القرآني عن سائر النصوص المكتوبة، إذ حفظت طريقة أدائه ومواقع الوقف والوصل وغيرها، مما يؤثر في تحديد المعنى . ومن الشروط ما يتصل بالسياق اللفظي الحاكم للنص القرآني وما يتضمنه من دلالات، حتى أَلَّف العلماء بعض الكتب لبيان معاني مفردات القرآن، نحو (المفردات) للراغب، وكذلك أَلَّفوا في بيان أسلوب القرآن مثل كتب معاني القرآن، وإعراب القرآن ؛ لكي يتم التوصل إلى المعنى الكلي. وكذا ضرورة معرفة الأغراض البلاغية التي من أجلها قيل هذا الكلام فدرسوا أسباب النزول، وأثر السياق في توجيه المعنى.

الإعجاز لغة واصطلاحاً:

الإعجاز لغة يعني الضعف قال ابن فارس في مقاييس اللغة: (ع ج ز) العين والجيم والزاي أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء³، والإعجاز هو "الضعف"⁴، وهو "تأديته بطريق أبلى من كل ما عاداه من الطرق"⁵.

واصطلاحاً هو الضعف وعدم القدرة على القيام بالشيء، والبيان هو الإفصاح والإبلاغ عن معنى عميق دون استطراد وتوسّع أو إطناب، هو مادة لغوية موضوعها لغة القرآن الكريم، تبحث في الجانب اللغوي، والبياني لمستويات الإعجاز اللغوي، وتعنى بالمستوى الإفرادي والتركيبى للغة، كما تهتم بالمستويات الصوتية والصرفية، والنحوية، والدلالية وعلاقتها بالفصاحة والبيان وأسرار الإعجاز القرآني، والإعجاز اللغوي في القرآن الكريم هو الدقّة في اختيار كلمات القرآن وترتيبها بصورة بدیعة، وببلاغة متناهية، وهو تأدية المعنى المطلوب بأبلغ الطرق، التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وهذه الصور تُظهر بلاغة الكلام وفصاحته، دون غموض وإبهام، بل بشكل واضح للناس، حيث يفهمها القارئ، وهو العلم الذي يهتم بإبراز إعجاز المفردة القرآنية من حيث؛ شكلها ومضمونها وغايتها. ويتبدّر أحكامها، فهو واضح، معجّز في وقت واحد؛ لأنّه كتاب الله -سبحانه وتعالى- الذي تحدّى به العرب، أصحاب البلاغة والبيان، وقد وقفوا عاجزين أمام بلاغته وحسن بيانه، ألفاظ القرآن الكريم، فقد امتازت بجزالتها، وحلاوتها، وقوة تركيبه، وسمو معانيه، وأخذة بمجامع القلوب، وعلوه على كل كلام.

جاء ذلك في كتب السيرة والسنة، فمن ذلك ما رواه عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فوالله، ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني، والله، ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر، قال: (هذا سحر يؤثر) يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾⁶ قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وكان التحدي الإلهي على مراحل متفرقة⁷، فقد وردت في كتاب الله - عز وجل - آيات تحدي بها الله المشركين على أن يستطيعوا كتابة مثل هذا الكتاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾⁸ وقد عظم تحدي الله للمشركين فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁹، وما زال هذا التحدي الإلهي قائماً ما دامت البشرية، فالقرآن معجزة باقية حتى قيام الساعة.

بلاغة التعريف والتنكير في القرآن الكريم:

وقد اعتنى علماء العربية بموضوع الإعجاز في القرآن الكريم عناية كبيرة، إذ قاموا باستقراء وتقصي بعض وجوه الإعجاز، فتوصلوا إلى أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في خلوه من المناقضة، وكذا اشتماله على الأمور الغيبية. بالإضافة إلى فصاحته، كما يشتمل على حقائق الدين وتضمنته الأسرار وحقائق التشريع، التي هي بمثابة دستور للمسلمين، وبلاغة تراكيبه، وطريقة نظمه وتأليفه، كما يكمن في الأسلوب الذي يخالف سائر الأساليب الواقعة في الكلام كأسلوب الشعر وأسلوب الخطب والرسائل، ويكفي أن نورد في هذا المجال ظاهرة **المعرفة والنكرة** التي استعملها النص القرآني وما دلالتها وما الأغراض التي استعملت من أجلها.

لقد تحدث علماء النحو عن المعرفة والنكرة، وبينوا وظيفة كل منها في الجملة العربية، فبينوا أقسام المعارف؛ فتحدثوا عن العلم، والضمير، واسم الإشارة، والاسم الموصول، والمعرف بـ "أل"، إلا أن حديثهم كان مركزاً على الناحية الإعرابية¹⁰، أما البلاغيون فقد اهتموا بالأغراض التي يكون من أجلها التعريف والتكثير فأبرزوا دلالتهم وحددوا أغراضهما البلاغية التي وضعت من أجله.

ينقسم الاسم من حيث الدلالة على المسمى إلى قسمين: **نكرة ومعرفة**.

• **النكرة**: هي الاسم الذي يدل على مسمى عام (شائع غير معيّن)، مثل: رجل، امرأة، دولة. وتمتاز بأنها تقبل دخول الألف واللام: رجل / الرجل، كتاب / الكتاب.

• **المعرفة**: هي الاسم الذي يدل على مسمى معيّن، وتشمل:

- الاسم العَلَمُ مثل: محمد، هند، مكة، مصر.

- الضمير مثل: أنا، أنت، هو...

- اسم الإشارة (الاسم المبهم): هذا، هذه، هؤلاء.

- الاسم الموصول: الذي، التي، مَنْ...

- الاسم المسبوق بأداة التعريف مثل: الغلام، الطالب، العلم.

- الاسم المضاف إلى اسم معرف مثل: كتاب زيد، كتابك، كتاب النحو.

• **لتعريف الاسم المنكر** ندخل عليه أداة التعريف "ال" مثل: مطار / المطار، أو نضيفه إلى اسم معرف مثل: سيارة / سيارتي، سيارة خالد.

للتعريف بأل أغراض أهمها:

تعيين واحد من أفراد الجنس: كقولك (أقبل الرجل) و (اشتريت الكتاب) ولا تقول ذلك إلا إذا كان المخاطب يعرف الرجل، أما أن يكون رآه أو جرى حديث عنه، أو نحو ذلك، ولا تقول ابتداء فلا تقول لمخاطبك (أقبل الرجل) وهو لا يعرفه، ولم يجر له سابق ذكر¹¹. وكذلك قولك (اشتريت الكتاب) فإنه لا يجوز أن تقول ذلك لمخاطبك إذا كان لا يعرف شيئاً عن الكتاب، ولم يجر له ذكر.

أغراض التكثير:

للتكثير أغراض متعددة تتمثل في:

1- التهويل أو التعظيم: كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾¹²

2- التحقير: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾¹³

- 3- التقليل : كقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾¹⁴
- 4- التعظيم: لقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾¹⁵ ، ومثال ذلك كأن تقول مثلاً: أتاني اليوم رجل أي (رجل في قوته ونفاذه)¹⁶.
- 5-التكثير: كما في قول الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾¹⁷ ، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾¹⁸.

نماذج تطبيقية:

1- لفظ السَّلام:

منَّ الله عز وجل بالسَّلام على عباده الذين اصطفاهم، وقد ورد لفظ السلام نكرة ومعرفة في القرآن الكريم وذلك لعدة دلالات نقف عليها من خلال السياق القرآني.

1-ورد لفظ السلام نكرة في حق يحي عليه السلام، قال الله عز وجل: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾¹⁹.

وورد لفظ السلام معرفة في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلِي جَبَّارًا شَقِيًّا 32 وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾²⁰.

إنَّ المتدبر لكتاب الله عز وجل يدرك الإعجاز الرباني في الآيات القرآنية، فلو نأتي إلى الآيتين السابقتين المتمثلة في قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾²¹ . وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلِي جَبَّارًا شَقِيًّا 32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾²².

-والملاحظ أنَّ الآيتين متشابهتان إلا أنَّهما تختلفان في كلمة "السلام" وهذا ما يدعونا للتأمل والتدبر والتساؤل حول ما سر في ذلك، لأن التركيب بهذا الشكل لم يأتي بمحصى الصدفة، أو اعتباطاً، فلاشك أن لكل تركيب قرآني غرض يهدف إليه الله عز وجل؛ لما ورد لفظ السلام من عند عيسى بن مريم عليه السلام لنفسه جاء معرفة للدلالة على أن السلام واحد، وما كان السلام من عند الله عز وجل ورد اللفظ نكرة، البلاغة العربية تراعي المقام وكما قالت العرب قديماً : البلاغة هي رعاية المقام ، ولكل مقام مقال ، فالمقام هو الذي استوجب تنكير كلمة السلام .

وعليه يمكن القول بأنَّ للتنكير غرضاً حقيقياً والمتمثل في:

-فقد يأتي التكثير والغرض منه التكثير قد يكون المقصود منه السلام في الدنيا والآخرة وفي المأل الأعلى، لذلك جاءت اللفظة موحية بمفهوم التعدد والكثرة.

-وهناك أغراض أخرى مجازية كالتعظيم، فلا شيء أعظم من سلام الله عز وجل على نبيه عليه السلام، وفي ذات السياق ذكر الطبري (ت 923 م) في تفسيره للآية الكريمة إذ قال: "حَدَّثَنَا يَشْرُ ، قَالَ : ثنا يَزِيدُ، قَالَ : ثنا سَعِيدُ ، عَنْ قَتَادَةَ ، أَنَّ الْحَسَنَ قَالَ : إِنَّ عِيسَى وَيَحْيَى ابْنَيْ مَرْيَمَ فَقَالَ لَهُ عِيسَى : اِسْتَعْفِرْ لِي ، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ : اِسْتَعْفِرْ لِي ، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى : أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي سَلَّمْتَ عَلَى نَفْسِي ، وَسَلَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ" ²³.

ولو وضع التكثير موضع التعريف لخرج الكلام من دائرة الإعجاز ولأشبهه كلام الناس، وكذلك لو وضع التكثير موضع التعريف فالبلاغة القرآنية هي التي استوجبت التكثير في سلام الله عز وجل على نبيه عليه السلام ، والتعريف في سلام النبي عيسى عليه السلام على نفسه.

أما تعريف كلمة السلام فلها سر بلاغي مقصود يطل مفعولها إذا ما جاءت هذه الكلمة نكرة ، فالألف واللام في هذه الكلمة القرآنية ليس الغرض منها التعريف بل هي (أل) الدالة على الكمال ، فآل تأتي في كلام العرب، ولها استعمالات عدة فتأتي أحياناً للتعريف، وهذا هو المشهور الغالب في استعمالها ، وقد نعوضها بالمضاف إليه مثل : ((لفظ الجلالة الله)) تقدير الكلام "سلام الله"، كأن تقول مثلاً: رسول الله، وغير ذلك، وقد يكون الغرض هنا الافتخار والتعظيم، كأن يقول مثلاً: سلام الله عليّ.

2- -اليسر والعسر:

لو نأتي لتأمل لفظي { العسر واليسر } الواردتين في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ²⁴

لقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم شارحاً بقوله صلى الله عليه وسلم: (عسر - واحد - بين يسرين)، حيث قال عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بأنه: (لا يغلب عسر - واحد - يسرين)، اليسر الأول غير اليسر الثاني وإن اشتركا في جنس اليسر، فقد ذكر المفسرون كالزمخشري في الكشاف، وشرح الحديث كالمناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير وجوهاً متعددة لليسر هي أقرب إلى التمثيل منها إلى التعيين، ومنها 25: الأول ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثاني ما تيسر لهم في أيام الخلفاء. أو أن يراد به يسر الدنيا ويسر الآخرة" وقد استند في شرحه إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ ²⁶

وهنا أراد المتشككون أن يطعنوا في القرآن الكريم فقاموا بمراجعة العدد المذكور في تلك الآيات الكريمة فلما وجدوا أن الله سبحانه وتعالى قد كرر كلمة **العسر** مرتين وأيضاً **اليسر** مرتين، تساءلوا فلماذا قال نبيكم بأنّ (العسر واحد) ؟ مع أنه مكرر .

فجاءهم الرد من علماء اللغة بأن لفظ (العسر) {ورد معرّفاً بالألف واللام وكرر مرتين (العسر) (العسر) للدلالة على أن العسر واحد ؛ كأن تقول مثلاً : (جاءني (الرجل) فأكرمت (الرجل))، فيكون الرجل الذي أكرمته واحداً هو هو، لذلك فالمعرفة إذا تكررت فهي واحدة، وعليه فتكون كلمة (العسر) تدل على أن العسر واحد، أما إذا تكررت النكرة مرتان في ذات الجملة فذلك يدل على أن الاسم النكرة يدل على شيئين مختلفين كأن تقول مثلاً : (جاءني (رجلٌ) فأكرمت (رجلاً))، فرمّا تكون قد أكرمت رجلاً ثانياً غير الأول، وعليه فتكرر لفظ {يسراً} نكرة جاء للدلالة على التعدد.

- ومن هنا ندرك أن {العسر} وإن تكررت فهي تدل على أنها واحد، وأما كلمة {يسراً} فهي تشير إلى أنها اثنان كما سبق شرحه.

3- لفظ إله:

وقد وقف أحدُ المستشرقين المشككين في وحدانية الله تعالى محتجين بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾²⁷؛ فقال أن كلمة (إله) جاءت وتكررت نكرة- فلم يقل (الإله) معرفة- وتكررت النكرة (إله) مرة ثانية، وهذا يعني أن هناك إلهان اثنان، على قاعدة إذا تكررت النكرة فتعني التعدد. فما تقولون في هذا؟

وقد حكى الشيخ الشعراوي رحمه الله أنه قد عجز عن الرد، وجاء أستاذ تفسير آخر وسأل شيخ الأزهر الشيخ شلتوت رحمهم الله، فعجزوا عن الإجابة، إلي إن دخل عليهم احد (الدرويش) فقال لهم: يا عالم، يا عالم، هل نسيتم وجود اسم الموصول (الذي) الذي ارتبط به وتبعه لفظ (إله) فأصبح معرفة، ولم يعد نكرة، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾²⁸؛ ولم يقل (وفي السماء إله) وفي الأرض إله

فيقول الشيخ الشعراوي فصمتنا جميعاً في ذهول لا نتكلم أكثر من نصف ساعة رحمهم الله جميعاً، وألحقنا وإياكم بال صالحين أمين.

وإضافة إلى ما قيل فإنّ المراد بإله: معبود، اندفع ما قيل من أن هذا يقتضي تعدد الآلهة، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت، كقولك: أنت طالق وطالق، وإيضاح هذا الاندفاع، أن الإله بمعنى

المعبود، وهو - تعالى - معبود فيهما. والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء، ومعبوديته في الأرض، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التباين فيها من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض، صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد، وفيه دلالة على اختصاصه - تعالى - باستحقاق الألوهية، فإن التقديم يدل على الاختصاص، والجار والمجرور متعلق بلفظ إله، لأنه بمعنى معبود في السماء ومعبود في الأرض.

وهو " تكذيب لهم في أن الله شريكا وولدا، أي : هو المستحق للعبادة في السماء والأرض وقال عمر - رضي الله عنه - وغيره : المعنى وهو الذي في السماء إله في الأرض، والمعنى أنه يعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله) وهذا خلاف المصحف. وإله رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي : وهو الذي في السماء هو إله، قاله أبو علي. وحسن حذفه لطول الكلام.

وقيل : (في) بمعنى على، كقوله تعالى : ﴿وَلَا صَلَّيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾²⁹ أي : على جدوع النحل، أي : هو القادر على السماء والأرض"³⁰.

5- لفظ الكتاب :

لفظ الكتاب في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾³¹ : استعمال اسم الإشارة للبعيد، وجاء لفظ الكتاب معرّفاً لأنه يحدد للدلالة على أنه الحق وما عداه الباطل، ولأن من الأغراض البلاغية للمعرفة القصير؛ وكأنه يريد القول أن ما عداه من الكتب لا يسمى كتاب، كما نقول { زيد المنطلق } فهذا يعني أنه هو المنطلق لا غيره، ثم قال جل و علا : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾³² : والأصل أن يقول : إنه لا ريب فيه للتأكيد الجملة ؛ لأن في البلاغة إذا كان المخاطب منكراً أن يكون الخطاب مؤكداً، ولكن هنا جاء لأغراض بلاغية وهي تنزيل المنكر منزلة غير المنكر.

6- لفظ البلد: في قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾³³، وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾³⁴ ؛ البلد، وهي مكة.

في الآيتين دعاء من إبراهيم عليه السلام لمكة في الموضعين، فورد لفظ البلد نكرة في سورة البقرة، وورد بالتعريف في سورة إبراهيم، وقد يسأل سائل ما العلة في ذلك، وما وجه التفريق بينهما؟ وبعد البحث في كتب التفسير وجد أن:

- إبراهيم عليه السلام سأل الله تعالى أن يجعل ذلك المكان الخالي بلداً عامراً يرتاده الناس، ويؤمنون فيه من كل مكروه، وذلك عندما جاء بأسماعيل وابنها إلى ذلك الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي؟ ويستدل لهذا المعنى بما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، ثم جاء بها إبراهيم وابنها إسماعيل عليهما السلام وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء³⁵.

وأما في سورة إبراهيم فكان الدعاء بعدما أصبح البلد بلداً بالفعل واستقر به الناس، وبنى فيه البيت الحرام، فدعا عليه السلام لأهله بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾³⁶.

- قال ابن كثير رحمه الله (ت 774هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾³⁷، هذا دعاء³⁸؛ مستدلاً بالسياق القرآني التي تدل عليه لاحق الآيات والمتمثلة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾³⁹، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾⁴⁰؛ فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها، أي بعد أن صار بلداً.

- وقال ابن عاشور (ت 1973م): في تفسيره أنه إن "كان المشار إليه في وقت دعاء إبراهيم أرضاً فيها بيت أو بيتان؛ فالتقدير في الكلام اجعل هذا المكان بلداً آمناً أي قرية آمنة فيكون دعاء بأن يصير قرية وأن تكون آمنة، وعليه فإن المراد من قول الخليل عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾⁴¹ هو دعاؤه للمكان قبل البناء أي قبل أن يصير بلداً⁴²، لأنه استعمل النكرة مع اسم الإشارة، بينما معنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾⁴³، فتلك دعوته له بعد أن صار بلداً⁴⁴ قائماً

والمعنى ذاته نلفيه في التفسير المنير إذ يقول صاحبه: لقد "عُرف هذا البلد هنا - يعني في سورة إبراهيم - ونُكر في سورة البقرة؛ ففي سورة البقرة كان دعاؤه قبل بنائها، لذلك طلب أن يجعل بلداً وآمناً، وفي سورة إبراهيم كان دعاؤه بعد بنائها فطلب أن تكون بلد آمناً واستقرار⁴⁵.

خاتمة البحث:

مما لا يوضع مجالاً للشك أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه، فهو الكتاب المنزل، والمنزه عن الخطأ الذي لا تفنى عجائبه، ومن النتائج المتوصل إليها:

لا يمكن أن يفسر القرآن الكريم إلا عالم متبحر في اللغة وعلومها.

- للتعريف والتكثير دور في إحداث تغيير في المعنى وخروجه إلى معان كثيرة ومتنوعة منها: التعظيم والتهويل والتحقيق والتي ساهمت في إحداث تغيير في معاني آي القرآن الكريم.

- مجيء التعريف والتكثير على أحوال مختلفة، يؤدي إلى مفاهيم جديدة، يكون للسياق دور في إيضاحها.

- التكثير يعطي دلالة التفخيم والتعظيم.

لابد من الإقبال على مدارس القرآن الكريم للوقوف على الزخم المعرفي الذي يكتنفها .

المصادر والمراجع:

- ابن فارس، أحمد ابن فارس بن زكريا أبو الحسن، مقاييس اللغة، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، د ت
- الإمام الشافعي (محمد بن إدريس 205 هـ)، الرسالة. تحقيق: أحمد محمد شاكر، د ط، د ت.
- جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل، دار المعرفة للنشر والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط 3، 2009.
- جلال الدين السيوطي، إتقان في علوم القرآن ج 4، تحقيق: محمد أبو الفضل، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، د ط، د ت.
- الرازي محمد أبي بكر، مختار الصحاح، ط 1، دار الفكر، 1421، ص 176.
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984.
- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
- علك كنعان بشير، قضايا الأسرة في الجملة العربية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، في اللغة العربية، مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل، 2006 .
- فضل حسن عباس، فنون البلاغة وأفناها علم المعاني دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، 1997 .

- القرطبي، عبد الله محمد لن أحمد بن أبي بكر، تحقيق: عبد الله لن عبد المحسن التركي، جامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، ج 19، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2002

- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط 1، دار الكتاب العربي، 1415، ج
- المناوي محمد بن عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، دار الفكر المعاصر، سوريا، لبنان.
- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج 1، دار الفكر، ط 2، 2003.

الهوامش:

-
- ¹ الإتقان في علوم القرآن ج 4، تحقيق: محمد أبو الفضل، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ص 213.
- ² الإمام الشافعي (محمد بن إدريس 205 هـ)، الرسالة،
- ابن فارس، أحمد ابن فارس بن زكريا أبو الحسن، مقاييس اللغة، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، د ت، ص 232.
- ³ الرازي محمد أبي بكر، مختار الصحاح، ط 1، دار الفكر، 1421، ص 176.
- المناوي محمد بن عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، دار الفكر المعاصر، سوريا، لبنان، ص 75 ⁵
- سورة المدثر، الآية 1 ⁶
- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط 1، دار الكتاب العربي، 1415، ج 2، ص 259.
- ⁷ سورة الإسراء، الآية 88 ⁸
- سورة البقرة، الآية 23. ⁹
- ¹⁰ فضل حسن عباس، فنون البلاغة وأفانها علم المعاني، بتصرف، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، 1997، ص 295.
- ¹¹ علك كنعان بشير، قضايا الأسرة في الجملة العربية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، في اللغة العربية، مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل، 2006، ص 86.
- ¹² سورة البقرة، الآية 48.
- ¹³ السورة نفسها، الآية 96.
- ¹⁴ سورة يونس، الآية 45.
- سورة هود، الآية 103 15
- سعد حسن عليوي، النكرة والمعرفة في الجملة العربية، ص 892. ¹⁶
- ، سورة الزخرف، الآية 71. ¹⁷
- سورة آل عمران، الآية 184. ¹⁸
- سورة مريم، الآية 15 19
- ²⁰ السورة نفسها، الآية 32-33
- سورة مريم ، الآية 15 21

²² السورة نفسها، الآية 32-33

الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص 306. ²³

سورة الشرح، الآية 5-6 ²⁴

²⁵ جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل، دار المعرفة للنشر والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط 3، 2009، ص 1210.

²⁶ سورة الطور، الآية 11

سورة الزخرف، الآية 84. ²⁷

سورة الزخرف، الآية 84. ²⁸

سورة طه، الآية 71. ²⁹

القرطبي، عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، جامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، ج 19، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2002، الص 91-92 ³⁰

سورة البقرة، الآية 2 ³¹

سورة البقرة، الآية 2 ³²

سورة البقرة، الآية 126. ³³³³

سورة إبراهيم، الآية 35. ³⁴

صحيح البخاري، ص 3365. ³⁵

سورة إبراهيم، الآية 35. ³⁶

سورة البقرة، الآية 126. ³⁷³⁷

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ³⁸

سورة إبراهيم، الآية 39. ³⁹

سورة إبراهيم، الآية 35. ⁴⁰

سورة البقرة، الآية 126. ⁴¹

الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984، ص 713. ⁴²

سورة إبراهيم، الآية 35. ⁴³

الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 715. ⁴⁴

وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج 1، دار الفكر، ط 2، 2003، ص 233. ⁴⁵